د . فؤاد المغربي: طاقة المعلم الفلسطيني دفقة أمل نحو تأسيسات ثقافية جديدة

د . فؤاد المغربي

بدايةً، أود الترحيب بكم جميعاً بالنيابة عن مؤسسة عبد المحسن القطان وعن زملائي وزميلاتي في المركز: مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.

أنا اليوم سعيد، سعيد جداً بهذه المناسبة، وأريد أن أغتنم الفرصة ولو للحظات قبل الشروع في الحديث عن رؤيتنا التربوية في سياق تبلورها التاريخي وتحققها في حقل الممارسة العملية. أقتنص هذه الفرصة، فرصة اللقاء بهذا العدد من المعلمات والمعلمين، لأقول لكم أنا القادم من الخارج من بلدان يلقى فيها المعلم رعاية ومساندة كبيرتين جداً نسبة لبلداننا، ومع ذلك تتفوقون عليهم بدرجات هائلة من حيث الانتماء والتصميم، إن حضوركم هذا في ظل تأخر الرواتب وانقطاعها لشهور عديدة، وعبوركم للحواجز الاحتلالية، وتساميكم عن هموم اليومي وإشكالات النظام السياسي الاجتماعي، كل هذا يمثل علامة أمل وبداية لتأسيسات ثقافية جديدة وتدشينات سياسية عميقة، فما لديكم من طاقة على العطاء وإصرار على النمو المهني في سياق مشروع اجتماعي للتغيير الشامل هي أساس مشروعنا في العمل التدخلي في الحقل التربوي لإعادة موضعة التربية في الحقل السياسي الثقافي كفعل فيه وضده.

سأحاول أن أقدم لكم نبذة تاريخية عن مركز القطان للبحث والتطوير التربوي الذي قمنا بتأسيسه سنة 1999، لأنه من المهم جداً أن يعرف العاملون في المجال التربوي سياق نشأتنا كضرورة لمعرفة ما هو تفكيرنا؛ ما زال سؤال التعليم هو محتوى التفكير والأهداف بالنسبة لعملنا التربوي في فلسطين، فهدفنا الإستراتيجي كان وما زال المساهمة قدر الإمكان في تحسين مستوى التعليم في فلسطين، من خلال اعتماد البحوث التطبيقية المبنية على رؤية معرفية نوعية، وانخراط حقيقي مع المعلمين، واختبار للفكر في ساحة الممارسة، واستعمال الناتج في تغيير ممارسات المعلمين وقناعاتهم، فنحن رأينا بعد اطلاعنا على الدراسات العالمية، أن العمل مع المعلم الفلسطيني هو الوسيلة الإستراتيجية المهمة لتحقيق هذه الأهداف، وقمنا بتعليم طاقم من الباحثين والعاملين وتطويره لتحقيق هذه الأهداف.

ما هو مفهومنا للبحث التربوي؟ أن تستعمل كل المنهجيات البحثية منها الكمية والنوعية العالمية وبناء أدواتها في سياق البحث ومناغمته للموضوع والغاية، لكن الأهم من ذلك أن نختار الأجندة البحثية من خلال حوار مع المعلمين مفاده أن هذه الأجندة لا تأتي جاهزة من الخارج. وهنا أريد أن أركز على نقطة في غاية الأهمية، وهي أننا بالأساس مؤسسة فلسطينية، ودعمنا فلسطيني بالكامل، ولا نقبل أي مساعدات مالية من جهات خارجية، ولا نقبل أي تدخل خارجي أو داخلي في رؤيتنا أو سياساتنا، ولذلك نحن بالفعل محظوظون لأننا نمتلك الأساس الذي ساعدنا على الحفاظ على استقلالنا وسوف نحافظ عليه في المستقبل أيضاً. إن ما وفَّر لنا هذه المقدرة هو كوننا مؤسسة وطنية نقية في تمويلها وتفكيرها والفريق العامل فيها، ما يجعلها مؤسستكم جسداً وروحاً.

إنكم كمتابعين تلاحظون ذلك من خلال انخراط بعضكم في عملنا أو متابعته من قبل البعض الآخر، أن معظم اهتماماتنا ونشراتنا وفعالياتنا كلها موجهة للمعلم الفلسطيني.

بالطبع، هناك أمور عديدة في وضع المعلم الفلسطيني أنتم أعلم مني بها، ونحن لا نستطيع أن نغيرها أو نؤثر فيها، ولكن كل جهدنا ضمن إمكانياتنا المتواضعة سوف يكرس لدعم المعلم الفلسطيني بطريقة أو بأخرى، ونحن أيضاً على قناعة مبنية على دراسات عالمية واضحة بأن المعرفة تنمو وتتوسع من خلال الحوار، وتوجد هناك أنواع عديدة ومستويات عديدة ومختلفة للحوار.

فالحوار مثلاً بالنسبة لفهمنا لمفهومه وتعاطينا معه، هو مبدأ عمل وسياق فعل وآليته، فالحوار مع الفكر التربوي يعني الانخراط في مساءلة المعرفة العالمية، ومعنى المساءلة في هذا السياق يتضمن معرفتها أولاً، واختبارها وإعادة إنتاجها ثانياً، يعني أن نتعرف على أهم ما أنتج، في العالم، ولكن المهم في الأمر أيضاً، أن ننظر فيه، فليس كل ما يخرج من الغرب نختلسه أو نترجمه أو نحاول أن نطبقه، لأن موضوع المعرفة وعلاقتها بالأمور السياسية في العالم علاقة مفهومة، هناك نوع من المعرفة هو ناتج عن احتياجات القوة السياسية الامبريالية وتعبير عنها.

وهناك أنواع أخرى من المعرفة التي هي مغايره لذلك، يجب أن نكون منتبهين لماهية المعرفة، وما هو النوع الذي نتعامل معه؟ وكيف وما هي المواضيع هنا؟ عندما نتعامل مع المعرفة العالمية لا نحضر أشياء ونحاول أن نطبقها هنا أو نترجمها، ونضعها في محك التجربة العملية من خلال تفاعلنا مع العاملين والباحثين ضمن إطار مجتمع وتاريخ وثقافة وهوية فلسطينية، ونحاول من خلال هذه الطريقة أن نخرج بأفكار جديدة تلائمنا نحن وتلائم حاجاتنا.

ولهذا، فالحوار مع المعرفة لا يستقيم إلا بحوار آخر يساكنه ويتجادل معه، حوار مع الواقع، واقعنا بأبنيته الثقافية وشروطه الاجتماعية ومشروعاته السياسية، حوار يعيد وضع المعرفة في سياقها التاريخي والثقافي، فلا يكفي أن نتحاور مع المعرفة العالمية فقط، يجب إضافة إلى ذلك والتوازي معه أن نتحاور مع تاريخنا العربي والإسلامي، وإعادة قراءة النصوص الكلاسيكية في حضارتنا، هذه النصوص التي انقطع عنها الإنسان العربي.

نحن مقطوعون، أو منقطعون. اذهبوا وشاهدوا الجامعات العربية، ترى الطلاب قد تخرجوا من الجامعات دون الاطلاع على النصوص المهمة في حضارتهم العربية والإسلامية، ولا يقرأون عنها إلا القليل، ولكن لا يقرأونها قراءة نقدية، الشيء الذي يخرجها من التاريخ ويخرج التاريخ من تاريخيته، يجب أن نحاور تاريخنا بشكل ذكي، وبشكل يساعدنا، لأنه إذا أردنا أن نجري أي تغير في العملية التربوية والفكرية والمعرفية، وإذا كان هذا التغير الذي نقترحه ضروري، فيجب أن يناسب الناس ليتجاوبوا معه حاضراً ومستقبلاً، لذلك لا بد أن يكون مبنياً على رؤية أصيلة، وقصة الأصالة هي موضوع شائك يمكن أن نتكلم به، وهو موضوع مهم جداً؛ لأنه يجب ألا نكون نقطة هامشية في تاريخ طويل، بالعكس علينا أن نفتخر بكوننا نمتلك حضارة وتاريخاً، ولكن السؤال الرئيس هو: ماذا نعرف عن هذه الحضارة؟ وكيف نقاربها في ضوء أسئلة الواقع واشتراطات الرغبة في تجاوزه؟ إذن، يجب أن نتحاور مع حضارتنا ونسائلها وننتقي المضيء فيها لاستعادة تشغيله في الفكر والثقافة، لأن ذلك قاعدة أولى لكي ننفتح على الآخرين وثقافاتهم، ونتمكن من هضمها وإعادة تمثلها دون أن تخل بهويتنا أو تفصل حياتنا عن واقعنا، هذا هو منطق التاريخ ومعنى الأصالة فيه.

مستوى ثالث من الحوار يجري بيننا كباحثين وبين المعلمين الذين نتفاعل

معهم من خلال الأيام الدراسية ومن خلال الورش والنشرات ومن خلال الكتابة وكل هذه الأشياء.

والمستوى الرابع، وهو باعتقادي أهم شيء هو الحوار الذي يجري بين المعلمين أنفسهم. وفي هذا المؤتمر تتداخل كل هذه المستويات من الحوار، ما يكسب المؤتمر أهمية خاصة لأنه يفتح المجال أمام المعلمين لكي يتحاوروا بناء على تجاربهم وفيها، من منطلق واقعي يتضمن القناعات والممارسات ونموها وهي تتلاقح مع رؤى جديدة، ونحن نشجع مثل هذا الحوار بين المعلمين، لذلك نحن فخورون جداً لأنه أصبح عندنا عدد كبير من المنتديات النشيطة، وهذه المنتديات جاءت كمبادرات من المعلمين، وليست منا نحن، وليس نحن من أسس هذه المنتديات، ولكن خرجت بشكل طبيعي؛ لأن ثمة شعوراً لدى المعلمين في مناطق عديدة أنهم بحاجه لمثل هذه المنتديات، وإذا عبرت هذه الظاهرة عن شيء فإنها تعبر -برأيي- عن إرادة قوية لدى المعلمين للارتقاء بدورهم الاجتماعي وبقدرتهم المهنية، ولتخطي الحواجز العديدة المفروضة عليهم، ليس الحواجز العسكرية التي يفرضها الاحتلال فقط، بل كل الحواجز الأخرى . . . الحواجز التي تفصل المعرفة عن الحياة أو التربية، وعن التاريخ أو الثقافة، وعن السياسة.

وطبعاً، نحن نتيجة النمو الهائل للمنتديات، وسرورنا بهذه الظاهرة المهمة التي هي امتداد لعملنا وتطوير لهذا العمل والتفاعل مع هذه المنتديات، عينا الزميل مالك الريماوي منسقاً للمنتديات، وكلي أمل أن تنمو هذه المنتديات وتكبر وتزدهر في المستقبل.

أنا لا أريد أن أطيل عليكم، وقبل أن أنهي هناك نقطة مهمة جداً بالنسبة لي، هي أنني أود أن أشكر جميع زملائي وزميلاتي، وكذلك الشباب الذي جاؤوا متطوعين، والذين عملوا ساعات طويلة للتحضير للمؤتمر، لكي يؤمنوا الوسائل والمناخ المناسب لهذا الحوار المهم، وشكراً لكم جميعاً.

د. فؤاد المغربي
مدير عام مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي